كتيب

اليهود والإفساد في الأرض

من كتاب «قصة تروم المسيحية»



كريم عشماوي

اليهود والإفساد في الأرض

لماذا يفسدون في الأرض؟

يخبر القرآن الكريم عن بني إسرائيل بسنّة تاريخية واضحة، وهي أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، ويعلون علوًا كبيرًا، ثم يأتي وعد الله بالعقوبة والتتبير عندما يبلغ الإفساد مداه. يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۞ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ۞ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۞ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۞ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾

[الإسراء: 4-8]

والآيات لا تعرض الإفساد باعتباره مجرد خطأ عابر أو مخالفة فردية، وإنما تربطه بالعلو الكبير وبالتمكين والقوة وما يترتب عليهما من ظلم وإفساد. والإفساد في الأرض في المفهوم القرآني أوسع من مجرد صورة واحدة؛ فهو يشمل الكفر والظلم والفتن وسفك الدماء ونشر الفساد الأخلاقي والعدوان وأكل الحقوق والعلو بغير الحق، وكل صورة من صور تحويل القوة والتمكين إلى وسيلة للظلم.

ويكشف القرآن كذلك صورة أخرى من صور الإفساد، وهي أن المفسد قد لا يرى نفسه مفسدًا، بل قد يقدم أفعاله على أنها إصلاح. يقول الله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۞ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 11-12]

ومن هنا يصبح السؤال أكثر عمقًا: كيف تتحول النصوص الدينية إلى أدوات لتبرير العلو والتمييز والعدوان؟ وكيف يمكن لنص ديني أن يُفهم بطريقة تجعل الاعتداء على الآخرين فعلًا مشروعًا أو واجبًا؟

النصوص التي صنعت مفهوم الاصطفاء والعلو

ينطلق هذا البحث من فرضية أن المشكلة لا تتعلق بمجرد وجود نصوص دينية قديمة، وإنما بالطريقة التي جرى بها تفسير بعضها وتحويلها من سياقاتها الدينية والتاريخية إلى تصورات سياسية وأيديولوجية حديثة.

ومن أبرز المفاهيم التي تظهر في هذا السياق مفهوم "الشعب المختار".

ففي سفر التثنية:

"لأنك شعب مقدس للرب إلهك، إياك اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض."

[التثنية 7:6]

ويظهر المعنى نفسه في سفر الخروج:

"فَالآنَ إِنْ سَمِعْتُمْ لِصَوْتِي وَحَفِظْتُمْ عَهْدِي تَكُونُونَ لِي خَاصَّةً مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الشُّعُوبِ، فَإِنَّ لِي كُلَّ الأَرْضِ. وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ لِي مَمْلَكَةَ كَهَنَةٍ وَأُمَّةً مُقَدَّسَةً."

[الخروج 5:19-6]

وهنا يظهر مفهوم الاختصاص والاصطفاء بوصفه عنصرًا مركزيًا في البناء الديني لبني إسرائيل. لكن المشكلة تبدأ عندما يتحول مفهوم الاصطفاء من تكليف ومسؤولية أمام الله إلى امتياز عرقي دائم، أو إلى أساس لإقصاء الشعوب الأخرى وإهدار حقوقها.

نصوص الحرب والتحريم

وتوجد في العهد القديم نصوص شديدة القسوة في وصف التعامل مع بعض الشعوب، ومن أكثرها وضوحًا ما ورد في سفر التثنية:

"فلا تستبقِ منها نسمةً واحدةً، بل تحرّمها تحريمًا... لكيلا يعلّموكم أن تعملوا مثل جميع رجاساتهم التي عملوها لآلهتهم، فتخطئوا إلى الرب إلهكم."[التثنية 16:20-18]

وفي سفر صموئيل الأول يأتي النص المتعلق بالعماليق:

"هكذا يقول رب الجنود: إني افتقدت ما عمل عماليق بإسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر. فالآن اذهب واضرب عماليق وحرّموا كل ما له ولا تعفُ عنهم، بل اقتل رجلًا وامرأة، طفلًا ورضيعًا، بقرًا وغنمًا، جملًا وحمارًا."

[صموئيل الأول 2:15-3]

وفي سفر يشوع:

"وحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف."

[يشوع 6:21]

هذه النصوص، بصيغتها المباشرة، تمثل مادة شديدة الحساسية في دراسة علاقة النص الديني بالحرب؛ لأنها تتحدث عن التحريم والقتل الجماعي وعدم إبقاء أحد من السكان، بما في ذلك النساء والأطفال، ضمن الرواية التي يقدمها النص.

ولا يكفي هنا نقل النص منفردًا، بل ينبغي ملاحظة أن تحويل مثل هذه المقاطع إلى مرجعية سياسية معاصرة يحتاج إلى مراحل من التأويل وإعادة القراءة، وهو الأمر الذي جعل النصوص القديمة تدخل لاحقًا في صراعات سياسية وقومية حديثة.

التلمود وإشكالية التعامل مع الآخر

إلى جانب النصوص التوراتية، ظهرت في الأدبيات الحاخامية نقاشات وتشريعات وتفسيرات تتعلق بعلاقة اليهود بغير اليهود، وقد استُشهد في هذا السياق بنصوص من التلمود يرى أصحاب هذا الطرح أنها تعكس طبقة أخرى من التمييز تجاه "الأمم" أو "الغوييم".

ومن النصوص التي تُذكر في هذا السياق:

في Yebamot 61a يرد نقاش يتعلق بتعبير "آدم"، وقد استُخدم هذا الموضع في بعض الكتابات لإثبات تصور تمييزي تجاه غير اليهود.

وفي Baba Kamma 113a توجد مناقشات فقهية حول السرقة والحقوق المالية بين اليهود وغير اليهود، وقد استُخدمت بعض قراءات هذه المقاطع لإثبات وجود تفاوت في الأحكام بحسب هوية الطرف الآخر.

كما يُستشهد بما ورد في سفر التثنية:

"لا تقرض أخاك ربا، ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء ما مما يُقرض ربا. للأجنبي تقرض ربا، ولكن لأخيك لا تقرض ربا."

[التثنية 19:23-20 بحسب ترقيم بعض الترجمات]

وهذه النصوص أصبحت جزءًا من الجدل التاريخي حول علاقة الشريعة اليهودية بالآخر، وحول ما إذا كان مفهوم "الأخ" داخل النصوص يقتصر على الجماعة الدينية أم يتسع ليشمل الإنسانية كلها.

من النص الديني إلى المشروع السياسي

هنا تنتقل القضية من النصوص القديمة إلى الطريقة التي أُعيد بها توظيفها في العصر الحديث.

فإذا تحولت فكرة "الشعب المختار" إلى تصور سياسي، وتحولت الأرض الموعودة إلى مشروع جغرافي دائم، وتحولت نصوص الحرب القديمة إلى مرجعيات لتبرير السيطرة على الأرض، يصبح الدين جزءًا من مشروع سياسي يتجاوز العبادة إلى إعادة تشكيل الجغرافيا والسكان والحدود.

ومن هذه الزاوية تُقرأ فكرة "إسرائيل الكبرى" أو "أرض إسرائيل الكاملة" باعتبارها مشروعًا يستند عند بعض التيارات الدينية والقومية إلى تصور توراتي للأرض، لا إلى حدود سياسية معاصرة فقط.

ويظهر هنا تعبير "إرتز يسرائيل هاشليماه"، أي "أرض إسرائيل الكاملة"، باعتباره أحد التصورات المرتبطة بالتيارات التي ترى أن حدود الدولة ينبغي أن تتطابق مع تصور ديني تاريخي للأرض.

ومن ثم يصبح الصراع على الأرض ليس مجرد نزاع حدودي، بل صراعًا بين تصورين: تصور يرى الأرض حقًا تاريخيًا ودينيًا، وتصور آخر يرى أن الأرض لأهلها وأن السيطرة عليها بالقوة والاقتلاع والتهجير عدوان لا تمنحه النصوص الدينية شرعية.

غزة في قلب الصراع

وفي هذا السياق تأتي غزة بوصفها واحدة من أكثر النقاط حساسية في الصراع الحديث.

فغزة ليست مجرد مساحة جغرافية صغيرة، بل تحمل رمزية دينية وتاريخية وسياسية عميقة، كما أنها بقيت خارج السيطرة الإسرائيلية المباشرة لفترات طويلة مقارنة بمناطق أخرى، وظلت فيها هوية فلسطينية وإسلامية قوية.

ولهذا أصبحت غزة عقبة أمام مشاريع تسعى إلى إعادة تشكيل المنطقة وفق ترتيبات سياسية واقتصادية وأمنية جديدة.

[2]وتظهر هذه الحقيقة بوضوح عند النظر إلى طبيعة المشاريع الإقليمية التي نشأت خلال السنوات الأخيرة، ومن بينها اتفاقيات إبراهام التي أُعلنت سنة 2020، وما تبعها من علاقات أمنية واقتصادية وتكنولوجية بين إسرائيل وعدد من الدول العربية.

فالتطبيع لم يعد مقتصرًا على العلاقات الدبلوماسية، بل امتد إلى مجالات الأمن والاستخبارات والتكنولوجيا والاستثمار والطاقة والموانئ والربط الاقتصادي.

وهنا تظهر صورة أخرى من صور النفوذ: السيطرة لا تحتاج دائمًا إلى احتلال عسكري مباشر؛ فقد تتحقق من خلال شبكات الاقتصاد والطاقة والتكنولوجيا والمعلومات والتحالفات الأمنية.

الغاز والموانئ والممرات الاقتصادية

وتدخل الطاقة في قلب هذه المعادلة.

فشرق المتوسط أصبح منطقة ذات أهمية كبيرة بسبب حقول الغاز، والموانئ، وخطوط النقل والطاقة، إضافة إلى المشاريع التي تربط آسيا بالخليج ثم بالبحر المتوسط وأوروبا.

ومن بين المشاريع التي طُرحت في هذا السياق "الممر الاقتصادي" الذي يربط الهند بالشرق الأوسط وأوروبا، وما يتصل به من موانئ وسكك حديدية ومراكز لوجستية وشبكات تجارة.

وبذلك تصبح المنطقة جزءًا من منظومة اقتصادية أوسع، وتتحول الجغرافيا من مجرد حدود سياسية إلى شبكة من الموانئ والطاقة والطرق التجارية والبيانات والتكنولوجيا.

وفي هذا السياق تُطرح إسرائيل باعتبارها مركزًا متقدمًا في الأمن والتكنولوجيا والاتصالات، بما يجعل نفوذها يتجاوز مساحتها الجغرافية بكثير.

التطبيع وإعادة تشكيل المنطقة

اتفاقيات إبراهام، وفق القراءة التي يقدمها هذا المقال، لا ينبغي النظر إليها باعتبارها مجرد اتفاقيات سلام تقليدية، بل باعتبارها جزءًا من تحول إقليمي أكبر يقوم على دمج إسرائيل في شبكة سياسية واقتصادية وأمنية جديدة.

وتشمل هذه الشبكة تبادل المعلومات والتكنولوجيا والتدريب الأمني والتعاون الاستخباراتي والاستثمارات ومشاريع البنية التحتية والطاقة.

ومن هنا يصبح التطبيع أداة لإعادة ترتيب المنطقة، لا مجرد إزالة حالة العداء الرسمية.

والسؤال الذي يفرض نفسه هو: من سيكون مركز هذه المنظومة؟ ومن سيمتلك التكنولوجيا والمعلومات والأمن والطاقة؟ ومن سيكون مستهلكًا لهذه المنظومة ومن سيكون متحكمًا فيها؟

لماذا تبقى غزة مختلفة؟

غزة، في هذا التصور، تمثل مشكلة لهذا المشروع لعدة أسباب.

أولًا، لأنها لا تقبل بسهولة صيغة "السلام مقابل المال" عندما لا يصاحبها حل سياسي عادل للقضية الفلسطينية.

ثانيًا، لأنها بقيت حاملة لهوية فلسطينية وإسلامية قوية رغم الحصار والحروب.

ثالثًا، لأنها تقع في منطقة ذات أهمية استراتيجية بالنسبة إلى مشاريع الطاقة والطرق التجارية والموانئ في شرق المتوسط.

رابعًا، لأنها ترفض تحويل القضية الفلسطينية إلى ملف اقتصادي فقط، وتصر على أن القضية مرتبطة بالأرض والحقوق والعدالة والسيادة.

وهنا تظهر المفارقة: كلما زاد الضغط على غزة، زادت مركزيتها في الوعي الفلسطيني والعربي والإسلامي.

غزة والهوية القرآنية

كما أن غزة ارتبطت في الوعي الإسلامي بهوية دينية عميقة، يظهر أثرها في التربية والمجتمع والحياة اليومية.

فعبارة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

تُقال على ألسنة الأطفال منذ الصغر، ويُربّى الإنسان على مفهوم التوحيد والعبودية لله، وعلى أن قيمة الإنسان لا تقاس بالمال والقوة وحدهما.

وهذا النوع من الهوية يصعب اختزاله في الاستهلاك أو المصالح الاقتصادية وحدها؛ لأنه يقوم على تصور ديني يرى الإنسان عبدًا لله، ويربط الكرامة بالحق والعدل، لا بالثروة أو القوة العسكرية.

وقد ارتبطت غزة كذلك بتاريخ إسلامي طويل، وكانت منطقة علم ورباط وحركة دينية وثقافية، كما ارتبطت بالفقه والعلماء عبر القرون.

7 أكتوبر 2023

وفي هذا السياق تأتي أحداث 7 أكتوبر 2023 بوصفها نقطة تحوّل كبرى في الصراع.

وفق القراءة التي يعرضها هذا المقال، لا ينبغي التعامل مع الحدث باعتباره واقعة منفصلة عن السياق السياسي والأمني الذي سبقها، ولا عن المشاريع الإقليمية التي كانت تتشكل في المنطقة.

ويطرح هذا التصور احتمال أن تكون الثغرات الأمنية التي سبقت الحدث، أو طريقة التعامل معه بعد وقوعه، قد دخلت ضمن حسابات أوسع، وأن الحدث استُخدم لاحقًا لتوفير مبرر سياسي وعسكري لحرب واسعة على غزة.

وبحسب هذه القراءة، تحولت أحداث 7 أكتوبر إلى ذريعة لعملية عسكرية ضخمة أدت إلى تدمير واسع للبنية التحتية، ونزوح أعداد هائلة من السكان، وسقوط أعداد كبيرة من الضحايا، وطرح مشاريع لإعادة تشكيل غزة بعد الحرب.

ومن هنا يظهر السؤال السياسي الأخطر: هل الهدف مجرد القضاء على فصيل مسلح، أم إعادة صياغة غزة سياسيًا وسكانيًا واقتصاديًا بحيث تصبح أكثر قابلية للدخول في منظومة إقليمية جديدة؟

الإفساد الثاني والعلو الكبير

وعند العودة إلى القرآن نجد أن قصة الإفساد لا تتوقف عند المرة الأولى، بل تتحدث الآيات عن عودة الإفساد والعلو: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾

ثم يقول سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾

وهنا تتضح قاعدة قرآنية مهمة: التمكين ليس ضمانًا أبديًا، والقوة لا تعني الخلود، والعلو مهما بلغ له نهاية.

فالقرآن يربط بين الإحسان والنتيجة الحسنة، وبين الإساءة وعاقبتها:

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾

وهذه القاعدة لا تختص بشعب دون شعب، وإنما هي سنة من سنن الله في الأمم.

الوعد لا يتخلف

وفي النهاية يبقى المبدأ القرآني ثابتًا:

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47]

فالإفساد قد يبلغ ذروته، والظلم قد يبدو في لحظة من اللحظات أقوى من الحق، والعدوان قد يمتلك السلاح والمال والإعلام والتكنولوجيا، لكن ذلك كله لا يجعل الظلم حقًا، ولا يجعل القوة دليلًا على رضا الله.

والقرآن لا يقدم التاريخ بوصفه سلسلة انتصارات دائمة للقوة، وإنما بوصفه سننًا تتعاقب فيها الأمم: تمكين، وعلو، وفساد، ثم حساب وعاقبة.

ومن هنا تصبح قضية النصوص المحرّفة والإفساد في الأرض مرتبطة بعضها ببعض في هذا البحث: نصوص قديمة، وتأويلات دينية، ثم تحولات سياسية، ثم مشاريع قومية، ثم استخدام للقوة الحديثة في فرض واقع جديد.

ويبقى القرآن هو المرجع الذي يكشف ميزان الحق والباطل، ويقرر أن معيار التفاضل ليس العرق ولا القومية ولا القوة، وإنما الإيمان والعدل والعمل الصالح.

فالظلم مهما طال ليس قدرًا أبديًا، والعلو مهما اشتد ليس خلودًا، والأرض ليست ملكًا دائمًا لمن يمتلك القوة.

وسنة الله ماضية: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

وفي النهاية، لا يبقى من مشاريع العلو إلا ما يوافق الحق والعدل، أما ما يقوم على الظلم والإفساد وسلب الحقوق، فمهما بلغ من القوة، يظل محكومًا بسنة الله في الأمم.

كتيب

كريم عشماوي

مفكر وباحث حر، مؤلف كتب: أسرار المحراب، مَثَلُ نوره ١، مثل نوره ٢، قصة تروم المسيحية، محمديم

هذا الكتيب مقال من كتاب

«قصة تروم المسيحية»

احصل على الكتاب من كتوباتي
https://www.ktobati.com/author/كريم-عشماوي

Lulu
https://www.lulu.com/shop/karim-ashmawy/قصة-تروم-المسيحية/ebook/product-dyqq5n8.html

Gumroad
https://karimashmawy.gumroad.com/

جميع المقالات على زينودو
https://zenodo.org/communities/kareem-ashmawy

ORCID
https://orcid.org/0009-0001-8776-4091